أقل من اللحظة ذاتها ، وحين مر بنا بدا وجهه يتشكل في راسي قطعة صغيرة فوق قطعة صغيرة اخرى ، مثلما يحدث حين تمسح بقماشة مبتلة وجها عتيقا مغبرا متآكلا في لوحة ما ، وفيما كانت أصوات حوافر حصانه تدق نازلة رويدا رويدا ورائي كان وجهه يتكابر صاعدا في داخل راسي، مرعبا ووهميا وعلى بعد ذراع . مثل كابوس فاجاك مرة اخرى، بعد أن استيقظت ، وراء المنعطف .

ان الزمن خديعة . اصطلاح واحتيال والا لما كانت تلك اللحظة الواحدة أطول من اية لحظة غيرها ولما كان بوسع ذلك الزحام من الاوهام والحقائق والمشاعر ، برعبها وتوقها وتحفزها وأملها ويأسها في آن واحد ، ان تتسع له لحظة واحدة كانت في الوقت ذاته ، للآخرين ، مثل اللحظة التي سبقتها والتي ستلحق بها . دور الحصان عنقه فيما اخذت تخش على جسده المشدود أجراس الفضة الصغيرة ، ورفعت بصري فاذا به ، الكابتن بلاك ، أمامي . كان مشغولا باحصاء رجاله وترتيب مسيرتهم الصغيرة فتقاطعت نظراتنا تقاطعا خاطفا دون ان تتصادم ، ومن ساقي اللتين كانتا تشدان حول ظهر الحصان العاري انتقلت الى جسده رنة القشعريرة فانتفض ، ولكني لجمته ومضيت هادئا مثلما كنت ، احصي دقات الحوافر تحتي ووراءي متوقعا ان تنقض السماء أو تتراجع في وهلة واحدة .

وتكوّن في راسي مثل زوبعة صغيرة . انه عبدالكريم بلا شك وانا الذي اعرف ، وقبل أن استدير أسمعته صوت البندقية تتأهب ومغلاقها يتراجع ويرتد، وصحت : عبدالكريم! قف والا أطلقت النار !

ووقف الحصان من تلقائه ثابتا ولكنه ، مثلما اردت ، لم يستدر، كان الفرار موتا ، وبدأت شتلات التبغ حولي تتقصف واحدة وراء الاخرى وتسقط في صدري فأسمع أصوات تقوضها كالعويل . مرة اخرى ، اذن ، يا كابتن بلاك .

وعرفت لتوي انه يدبر لعبة أخرى ، ويقف هناك يفكر في تنفيذها ، فغيرت مكاني بهدوء كي أفشل افتراضه دون أن أزيح عيني عنه وهو مستو هناك على ظهر حصانه يعطيني ظهره ببرود ، كان حصانه عاريا ولكنني لم اكن متأكدا من انه لا يحمل ، في مكان ما تحت قميصه الفضي ، سلاحا . . وقلت بهدوء وقد استعدت رباطة جأشي : انزل عن الحصان وتقدم رافعا ذراعيك . وبدأت أنزل عن ظهر الحصان دون ان يكون في راسي شيء معين، ولكنني قبل أن المس الارض سمعت صوت الكابتن بلاك ترن فيه الشماتة : « عبدالكريم . . هنا ثلاث بنادق مصوبة اليك تماما ، لا ترتكب أية حماقة » .

ونزل بهدوء ، مثلما رايته دائما ، واستدار كأن الامر لا يعنيه ، رافعا ذراعيه ولكنه لم يتقدم ، وتبادلنا النظر وفهم كل منا ما حدث ويحدث وسيحدث دون كلمة واحدة ، واغلب الظن انه رأى نجمة جديدة تلمع على كتفي حين رأيت في اللحظة ذاتها سوادا قاتما يحيط بعينيه ، وقبل أن أطلب منه التقدم خطا جابي الضرائب الى الامام وهو يتنفس الصعداء :

— اي عبد الكريم هذا يا كابتن بلاك ؟ نحمد الله انك لم تطلق الرصاص على ظهر هذا الرجل البريء . . انه حسنين ، احد جامعي التبغ عند الحاج عباس ، كل ترشيحا تعرفه .

وكنت أشعر تماما ان الكابتن بلاك ظل طوال الشهور الستة الماضية فوق هذه الخديعة وخارجها ، وان الامر لن يغير شيئا ولكن ربما يعطيني لحظة أخرى افكر فيها ، ومثلما توقعت ضحك الكابتن بلاك تلك الضحكة العصبية التي تبصقها اسنان رجل يعرف انه لن يستطيع ان يكسب النقاش الا فيما بعد ، وهز بندقيته وهو يشير نحوي صائحا :

— انه عبدالكريم ، وانا الذي أعرف . . تقدم ببطء الى هنا .